المحاضرة الثالثة: ديوان الأمير عبد القادر.

الأمير عبد القادر-أمير السيف والقلم -

تمهيد قبل الدرس: الحديث عن الأوضاع الفكرية والثقافية السائدة في عصر الضعف خصوصا اللغة حيث كانت ضعيفة فلم تكن لغة رسمية يحفظها الامراء والحاشية، وظلت محصورة في دوائر الدرس والقضاء، لذلك شاع اللحن حتى بين الأدباء والنحاة.

1/ محطات في تحقيق وتوثيق الديوان: نظرا لمكانة الأمير وأهمية شعره الذي كُتب في ظروف متقبلة (بين الجهاد، والأسر في فرنسا، ثم النفي إلى دمشق) خضع لعدة تحقيقات ودراسات علمية لتنقيحه وتوثيقه، ومن أهمها:

محمد بن الأمير	نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر.
ممدوح حقي	ديوان الأمير عبد القادر الجزائري.
زكريا صيام	ديوان الأمير عبد القادر الجزائري.

العربي دحو	ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري.

2/ التعريف بالأمير عبد القادر: ترجم له ابنه **الأمير محمد** فقال" هو فرع الشجرة الزكية، وبدر العصابة الحسنية، إنسان عين السادة، الأخيار، صدر الشريعة بل تاجها، بدر الحقيقة بل معراجها، نخبة آل بيت اشتهرت بالشرف أوائلهم و أواخرهم، وأشرقت في أفق سماء السعادة فضائلهم ومفاخرهم، من عجزت عن حصر أوصافه الأقلام، وتباهت بوجوده الليالي والأيام، وتزينت الطروس بغرر مزاياه ومدائحه، وتلت النفوس آيات الحمد والإخلاص في صحائفه، واسطة عقد الشرف المقتنى، وغصن شجرة المجد المجتنى، كعبة القاصدين، حرم الخائفين، ناصر الدين، الأمير عبد القادر بن محيي الدين" [1]

فهو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري، أمير مجاهد ومن العلماء والشعراء ولد في – القيطنة– ولاية معسكر سنة 1807م، وتعلم فيها، ولقد تملك الأمير بوادر العبقرية وخصائص نفس تتقد ذكاء وتوثب روح مجللة بالحياء والكمون والذكاء ودقة الملاحظة، وكان عالم متصوفا وهو الرجل الأسطورة نمى وترعرع في أرض الفداء حامل لواء السيف والشعر، تزعم مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر (1832م،1847م) حيث " لم تكن شخصية الأمير ذات جانب سياسي أو عسكري أو أدبي أو علمي فقط ولكنها كانت هؤلاء جميعا إن الأمير عبد القادر استطاع أن يجمع بين الأصالة والتجديد في شعره وأن سعة أفقه التاريخي والفني والديني والاجتماعي أتاحت له تجربة رائدة جعلته يقف في طليعة الشعراء"[2]. ودراسة شخصية الأمير تحتاج إلى تأويل حيث قال:

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري فليس يريك الرسم، صورتنا العظمى

فثم وراء الرسم، شخص محجب له همة، تعل وبأخمصها النجما

---

[1]- ينظر: ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، جمع وتحقيق: العربي دحو، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، (د. ط)، 2000، ص 09.

[2] - ينظر: صيام زكريا، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، (د. ط)، (د.ت)، ص 13، وينظر: الأميرة بديعة الحسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري- حقائق و وثائق-، دار الفكر ط1، دمشق، 2000، ص 323.

وبهذا فإن "فرنسا في القرن التاسع عشر دولة ولا أعظم والأمير عبد القادر في القرن نفسه رجل ولا أعظم، رجل يتحدى دولة بطل جعل الحشر تحت أخمس البطولة وقال للدنيا اضطربي لأن فالمرحلة الزمنية التي وجد فيها الأمير كانت فترة مضطربة (سياسيا، اقتصاديا و قحط ثقافي فحمل السيف والقلم لتحرير البلاد والعقول" ويمكننا حوصلة عوامل بناء شخصية الأمير وترسيم شخصيته عبر أربعة مرتكزات وهي:

- ✓ ولادته في أسرة شريفة ومتمكنة من ناصية العلوم الشرعية ومنتسبة إلى طريقة صوفية – القادرية– ومؤسس لمعهد القيطنة الشرعي، فتشبع من الثقافة العربية الإسلامية – القرآن الكريم، التفسير والعلوم اللغوية.
- ✓ حيازته على ملكة التفوق والذكاء والكمال الجسماني.
- ✓ الاطلاع على تجارب الأمم والشعوب إما بصفة مباشرة مثل رحلاته المختلفة للحج مع أبيه أو بمفرده كما يقول عن ذلك أحد دارسيه عن تنقله إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وكانت هذه الرحلة المباركة ذات تأثير كبير في حياة عبد القادر الذي أخذ مباشرة بعد عودته في الاعتزال عن الناس وانصراف إلى العبادة والدراسة منشغلا بكتب الفلاسفة، فقرأ أفلاطون وفيثاغورث وأرسطو ودرس كتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية عن التاريخ القديم والحديث وعن الفلسفة واللغة والفلك والجغرافيا بل وحتى الطب وتشرب التصوف من خلال كتب محي الدين بن عربي وكتب ابن سينا وغيرهما، أو بصفة غير مباشرة مثل قراءات كتب التاريخ والفلسفة الجغرافية.
- ✓ الحالة المزرية التي كان يعيشها الأهالي في المناطق النائية عن الحواضر.

وإجمالا يمكن القول بأن شخصية الأمير لم شخصية ذات جانب سياسي أو عسكري أو اجتماعي أو أدبي أو علمي فقط ولكنها كانت هؤلاء جميعا.

3/ الأمير عبد القادر شاعر:

إن التمعن في تعرجات وقائع ويوميات الأمير منذ وعيه مشاكسة الحياة وعبر مسيرته التعلمية وتسلمه لقيادة الكفاح ضد الآخر الغازي يجبرنا على القول بأن – **البوح الشعري**– وانهماراته يبدو أنه الأوفى في التعبير عن المبتغيات والمشتهيات المكبوتة تحت وطأة الموروثات وحيثيات الواقع حينذاك، وذلك لسبب بسيط يتمثل في مداومته على روح المقاومة مدة سبعة عشر سنة مرفوقة بقطع مسافة محمودة نحو بناء أسس دولة عصرية حديثة.

ولقد جاءت براعة الأمير في كونه استطاع أن ينظم الشعر ويتعاطى القريض وهو ما يزال يافعا دون الخامسة والعشرين من سنه لم يسبق له أن تعلم موازين الشعر ومقاييسه و لا سبق تلقي أصوله ومبادئه على أستاذ خبير في فنون الشعر وأصوله، وقد قال في شتى الأغراض التقليدية مثل:

الغزل: أكثر غزله موجها لزوجه – عدد قصائد الغزل التي قالها هي إحدى عشر ما عدا قصيدة باللحظ تخدش وجنة فقد نظمها إجابة منه على بعض الأدباء في قضية جمال تشريط خدود المرأة– ، ومن تغزله نجد:

أقول لمحبوب تخلف من بعدي علـــــيلا بأوجاع الفراق والبعد

أما أنت حقا لو رأيت صبابتي لهان عليك الأمر من شدة الوجد.

الفخر: حيث يقول:

لنا في كل مكرمة مجال ومن فوق السماء لنا رجال

ركبنا للمكارم من كل هول وخضنا أبحرا وله زجال

سوانا ليس بالمقصود لما ينادي المستغيث: ألا تعالوا.

ولفظ الناس ليس له مسمى سوانا والمنى منه ينال

و بين طيات شعره نجد الأغراض الشعرية التقليدية فهو يبني القصيدة على القالب الخليلي مثل قصيدة **ما في البداوة عيب، بي يحتمي جيشي، شددت عليه شدة هامشية، ذات الخلخال** ويلبسها

المعنى المعاصر جامعا بين التصوير الفني والتعبير المتين واستطاع بملكته الشعرية التفلت من التقليد إلى سلطة التجديد والواقعية.

ولم يبق القول الشعري في مجال التعبير عن الهموم الذاتية المحض بل زوده بحمولات إيديولوجية واستراتيجية تجاوزت به المفهوم الكلاسيكي للشعر نحو مفهوم جديد يتماشى مع مقتضيات الحال ومستجدات العصر.

ولقد ساهم بقسط وافر مد الجسور بين شعرية مغاربية تنبثق من تحت رماد الشعرية العربية في المشرق التي كانت قد أفل نجمها منذ استيلاء المماليك العثمانيين على الحكم – شعرية عربية ومعاصرة قد تجلت بعض ملامحها عند الأمير في امتلاكه الجرأة والشجاعة على الإبداع الشعري في مضامين وقضايا مازالت حتى الآن تتشكل المحنة العربية والهم الوطني.

4/ ريادة النهضة الأدبية: إن العظمة كالشمس تكشف ما عداها والعبقرية كالضياء تعمر كل شيء سواها فإذا أنت رأيت رجلا عظيما في البطولة نسيت أنه أديب وإذا قرأت لشاعر سها عن بالك أنه محارب شجاع والأمير عبد القادر والعبقرية كالضياء تعمر كل شيء سواها فإذا أنت رأيت رجلا في البطولة نسيت أنه أديب وإذا قرأت لشاعر سها عن بالك أنه محارب شجاع والأمير عبد القادر كان هؤلاء جميعا لقد فطر حياته شعرا وأحاسيس ومشاعر" [1]، فلقد نظم الشعر في شبابه لكن للأسف ضاع معظمه وذلك لعدة أسباب:

- ✓ انهماكه في بناء دولته.
- ✓ حربه ضد المستعمر.
- ✓ استيلاء العدو على مكتبة بيته في زمالة التي أودع فيها مذكراته الخاصة.

وهكذا يستقيم لنا الرأي في أن الضياع قد وقع فيما نظمه أثناء شبابه وبالذات في حياته السيفية وفي هذا الصدد عالج الدكتور ناصر محمد في كتابه – منتخبات من شعر الأمير– هذه النقطة " بدأ الأمير عبد القادر الشعر شابا كما تدل على ذلك وثيقة البيعة الأولى التي تصفه بالشاعر

[1] - الأميرة بديعة الحسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري- حقائق و وثائق-، دار الفكر ط1، دمشق، 2000، ص 325.

الناثر وقد دأب على كتابة الشاعر إلى أخريات أيام حياته، ولم ينصرف عنه في كل حالاته سواء في مرحلة المقاومة والجهاد في الجزائر، أم في مرحلة الاعتقال بفرنسا، أم في مرحلة الاستقرار في الشام ومن المؤسف أن يكون القسم الأول من شعره قد ضاع أغلبه، ويغلب على الظن أنه ضاع من خلال هجوم الفرنسيين على الزمالة واستيلاءهم على مكتبة الأمير وأوراقه الخاصة، وفوق كل هذا أن يكون أروع شعره ما قاله زمان الحرب والثورة جاء على أشد ما يكون في القوة والمعنى ومتانة الأسلوب فقد صور واقع البلاد والشعب وأعطى لنا صورة واضحة قوية عن شخصيته وبسالة جيشه الفتي كما جسم الوقائع الحربية بمظاهرها المهولة في شعر المقاومة والنضال، الحماسة، الفخر، الوصف، التصوف، الحكمة.

وعندما نقرأ لأساتذة جيل النهضة العربية د/ شوقي ضيف ومحمد بنيس ومحمد سليم إبراهيم هذا الأخير الذي ألف كتابا تحت عنوان – محمد سامي البارودي رائد الشعر العربي الحديث– وكذلك أدونيس عندما قال: البارودي/ النهضة/ الحداثة بالإضافة إلى عبد المنعم خفاجي الذي تحدث كغيره على أن البارودي باعث الإحياء في الشعر العربي الحديث، ومقولة عبد الرحمن الرافعي" محمود سامي البارودي هو إمام الشعراء قاطبة، وباكورة الأعلام في دولة الشعر الحديث وأول من نهض به وجارى في نظمه فحول الشعراء المتقدمين، فبعث النهضة من مرقدها بعد طول الخمول..." عند قراءتنا لكل هذا نتساءل: ما موقع الأمير عبد القادر من كل هذا؟

إن مثل هذا السؤال وغيره يدفع بنا نحو تقديم ورقة مفصلة قدر المستطاع على بعض القضايا التي تساهم في التأكيد على أن الأمير أسبق من البارودي:

- ✓ الأمير ولد 1807م، والبارودي ولد عام 1839 م مما يدل على تقدم الأمير على البارودي في العمر وفي تجربة المقاومة والنضال والحياة العسكرية وفي تجربة الإبداع الشعري على وجه الخصوص.
- ✓ ولد الأمير في الريف وتربى فيها مما صعب مهمة تكوينه وتعلمه تعليما نظاميا حديثا فقد شاءت الأقدار أن يقضي أجمل أوقات شبابه في الحرب والمعارك حتى وصل إلى المنفى

دون أن يتمكن من صقل موهبته بالاحتكاك بالأساتذة الحداثيين والمراجع والدواوين بينما البارودي قد توفرت له كل شروط التعليم والتربية حتى أن أمه كانت تحضر له أساتذة ومعلمين إلى المنزل.

- ✓ إن الأمير امتلك البطولة والشجاعة من الريف الجزائري ومن الطبيعة الجزائرية المكسوة جبالا وشعابا وصحاري وزاد من تمسكه بها معاركه وحروبه وهو شاب صغير لا يتجاوز العشرين من عمره مما يجعل التجربة الشعرية في أغراضها ومبانيها صادقة.

ونجد رأي **عبد المعطي حجازي** ينم عن رؤية موضوعية واطلاع واسع على لب الموضوع فقد كان مقتضبا وغير صريح في وضع الأمير في مكانه الحقيقي وذلك استنادا إلى ذكره وإقراره بأنه " حين نقرأ شعر الأمير عبد القادر نتذكر معه البارودي كلاهما فارس وكلاهما شاعر، وإن رجحت كفة الأمير في الأولى ورجحت كفة البارودي في الأخرى، والشبه لا يقف عند هذا الإطار الخارجي بل يتعداه إلى لغة الشاعرين وإلى موضوعاتهما، فقد اتخذ كل منهما الشعر للإفصاح والتعبير لا للزخرفة والتصنيع، وهذه أول خطوة في الخروج عن التقليد، وكل منهما وصف الحرب وعبر عن عواطفه وذكر أهله و ولده، وكل منهما تعرض للأسر والنفي وكل منهما له في حركة الإحياء مكان مرموق".

ثم يضيف" على أن الأمير عبد القادر قد سبق البارودي زمنا ....ومعنى هذا أن النفس الإحيائي في شعر الأمير لم يأت تأثرا بزعيم الإحياء في القرن التاسع عشر وإنما جاء مباشرة عن طريق النظر في الشعر القديم وأشمل من هذا القول أن نقول إن فكرة العودة إلى الينابيع الأولى خطرت على الجميع في وقت واحد أو أوقات متقاربة على غير اتفاق وكان للجزائريين فيها ممثل قوي".

ولكنه لم يقل صراحة أن: الأمير عبد القادر هو الرائد والمحدث للشعر العربي وليس البارودي.